التفكير الاستراتيجي واستشراف المستقبل

أ.د.مخلص السبتي [1]
جامعة الحسن الثاني – المغرب

المقدمة:

في العقود القليلة الماضية طرأت تطورات مذهلة في مختلف القطاعات، ومن ضمنها نجد الكثير من المربّين ورجال التعليم في مناطق مختلفة من العالم – كأنّما يعدّون تلامذتهم للعيش في الماضي لا في المستقبل؛ لأن الكثير من المناهج التربوية تجعل نظر المتعلم مصوبا إلى الخلف (حيث المادة المعرفية للعلوم والفنون والأديان والفلسفات..) أكثر مما تجعله موجهًا للأمام (حيث الخيال المفتوح على إمكانات وفرص التطوير والتجديد والتجاوز) ويستمر هذا الإخلال بالتوازن حتى يعتاد المتعلم عليه في حياته الدراسية ، ثم في حياته العملية عندما يعهد إليه برفع جزء من تحديات واقعه ، وهناك يبدي قدرًا من العجز والتردد ، فمعظم تكوينه إنما أهّله لفهم إنجازات الماضي وتحدياته وإشكالاته ، ولم يؤهله – إلا عرضًا – لبناء بدائل المستقبل وإمكانات التحرك فيه .

مشكلة البحث:

ملاحظة وجود نزوع نفسي يحن إلى الماضي ويتصور الحياة سيرًا مستمرًا إلى الأسوأ ، مع سعي لتوظيف التراث لترسيخ هذا النزوع وتبريره ، مما يجعل الجهود تستنزف – منذ قرون متتابعة عندنا – في معارك جانبية ضد الجديد ، ضد المطبعة لما اخترعت ، وضد الشاي والقهوة والجريدة والتلغراف ...واللائحة طويلة ومفتوحة .

أسئلة البحث:

كيف يمكن بناء حس مستقبلي عام يوجه الطاقات ويفيد المؤسسات والمجتمعات ؟

---

[1] أستاذ التعليم العالي بجامعة الحسن الثاني – المملكة المغربية أستاذ الفكر الاسلامي وعلم النفس التربوي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية .مؤسس ورئيس مركز استشراف للدراسات والأبحاث والتكوين

وكيف يمكن أن يكون الماضي وسيلة لفهم المستقبل وحسن التصرف فيه ؟ وكيف يمكن أن يكون عائقا دون ذلك ؟

وكيف يمكن بناء تصورات مستقبلية عملية تتيح توسيع الآفاق والتمكين من الإفادة من الفرص وتجنب المخاطر أو تقليصها قبل وقوعها ؟

أهداف البحث:

السعي للإجابة عن الأسئلة أعلاه بما يرفع الوعي العام بأهمية الدراسات المستقبلية في تكوين الرؤية الجماعية العامة ويمهد للتنمية في أبعادها الحضارية كافة.

أهمية البحث:

بيان أهمية الدراسات المستقبلية في تطوير التعليم وتحقيق التطور والتنمية .

التعريف بأهم مناهج الدراسات المستقبلية ، والكشف عن النموذج الملائم للبيئات العربية في أبعادها الحضارية والتنموية .

منهج البحث:

منهج استقرائي- تاريخي

الكلمات المفتاحية: استشراف المستقبل؛ أنماط التفكير ؛ بدائل؛ تعليم ؛ بحث أكاديمي.

.

Strategic Thinking and Foreseeing the Future

SEBTI MOUKHLISS[1]

Abstract:
Educators - in many regions of the world - take their students back to the past, and do not prepare them for the future. This is because many educational systems make the learner's focus mostly directed backward (where sciences, arts, religions and philosophies are...) than forward (where imagination is open to the possibilities and opportunities for development, renewal and otherworldliness.) This imbalance continues for years until the learner gets used to it in his academic life, and afterwards in his practical life when he is entrusted with raising part of the challenges of his reality. Here, he shows a degree of helplessness and hesitation, as most of his educational training has only enabled him to understand the achievements of the past together with its challenges and its problems. This does not lead him - except accidentally - to build alternatives for the future and to indicate ways to move forward. Unless the graduates take responsibility for reforming himself and arranging and directing his knowledge, they will only be part of the problem, not of the solution.
Keywords: educational systems; alternatives; education; academic research.

[1] Professor at Hassan II University - Morocco

مقدمة:

يروى عن عائشة رضي الله عنها (ت 57 هـ) قالت: "رحم الله لبيدا إذ يقول:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجرب "

قالت عائشة: كيف لو أدرك زماننا هذا ؟

قال عروة بن الزبير(94 هـ) رحم الله عائشة، كيف لو أدركت زماننا هذا ؟

قال الزهري (ابن شهاب ت 124 هـ): رحم الله عروة، كيف لو أدرك زماننا هذا ؟

قال الزبيدي (محمد بن الوليد الزبيدي ت سنة 146): رحم الله الزهري، كيف لو أدرك زماننا هذا .

وقال زهير (زهير بن محمد بن قمير بن شعبة ت سنة 257) : رحم الله هؤلاء جميعا كيف لو أدركوا زماننا هذا (العلاني، 2003، صفحة 61) ، وفي كتاب فوائد الحنائي إضافة أسماء أخرى في سلسلة "كيف لو " كمحمد بن مهاجر وعثمان بن سعيد ، ومحمد بن عوف وخيثمة بن سليمان وأبو بكر محمد بن عبد الرحمن .. (القاسم، 2007).

وعلى الرغم من ضعف هذه الرواية ، وعلى الرغم من مخالفتها للعديد من نصوص الكتاب والسنة ، فإنها تكشف عن ميل نفسي- يضرب بجذوره إلى الجاهلية العربية حيث الافتخار بالآباء واتخاذهم معيارا في القبول والرد ، إنه نزوع نفسي- يحن إلى الماضي ويتصور الحياة سيرا مستمرا إلى الأسوأ ، وهذا ما جعل الجهود تستنزف – منذ قرون متتابعة عندنا – في معارك جانبية ضد الجديد ، ضد المطبعة لما اخترعت ، وضد الشاي والقهوة والجريدة والتلغراف ...واللائحة طويلة ومفتوحة .

وعموما ، هناك أنماط ثلاثة في تعامل الإنسان مع محيطه والنظر إلى مستقبله:

1. النمط الماضوي: وهو هروب إلى الماضي وانزواء في إشكالياته واحتماء بيقينياته، وإثارة مستدامة للقضايا الميتة التي انقضت بانقضاء زمانها وماتت بموت أهلها، مع ضعف السعي لفهم قوانين التاريخ، الشيء الذي لا يمكن من التحكم في الواقع والتخطيط للمستقبل.

2. النمط المستقبلي: وهو سعي إلى تربية الذوق والحس تربية مسايرة لقوانين الحياة من أجل ملائمتها مع الطبيعة الإنسانية السوية التي من صفاتها التعقل والتبصر .
3. النمط الآني وهو الذي لا ينتبه لماض، ولا يحمل هم مستقبل، همه منحصر في الاستهلاك ، وفي الاستمتاع بما يتيحه له واقعه من إمكانات ، وهذا كفيل بتخييب آمال الأولين وتخريب صنع الآخرين.

في هذا الاتجاه ، يطرح ميشيل كودي Michel Godet ثلاثة مواقف يصور فيها الأنماط الثلاثة: موقف النعامة، وموقف رجل المطافئ، وموقف وكيل برج المراقبة ، فالموقف الأول هو موقف الممتنع عن رؤية الواقع كما هو، والهارب من الخطر الحال إلى الأمان المفترض بقاؤه جهلا وإصرارا ، وموقف رجل المطافئ، وهو موقف المنتظر لحدوث الكارثة، لا يتحرك إلا بعد حدوثها، وموقف وكيل برج المراقبة المستشرف اليقظ الذي لا ينتظر انتشار النار لكي يهب لإطفائها ، بل يعمل على عدم اشتعالها أصلا (Godet، 1989، p. 80) .

والواقع أن الكثير من المربين ورجال التعليم في مناطق مختلفة من العالم – كأنما يعدون تلامذتهم للعيش في الماضي لا في لمستقبل ، ذلك أن الكثير من المناهج التربوية تجعل نظر المتعلم مصوبا إلى الخلف (حيث المادة المعرفية للعلوم والفنون والأديان والفلسفات..) أكثر مما تجعله موجه للأمام (حيث الخيال المفتوح على إمكانات وفرص التطوير والتجديد والتجاوز) ويستمر هذا الإخلال بالتوازن حتى يعتاد المتعلم عليه في حياته الدراسية ، ثم في حياته العملية عندما يعهد إليه برفع جزء من تحديات واقعه ، وهناك يبدي قدرا من العجز والتردد ، فمعظم تكوينه إنما أهله لفهم إنجازات الماضي وتحدياته وإشكالاته ، ولم يؤهله – إلا عرضا – لبناء بدائل المستقبل وإمكانات التحرك فيه .

وما لم يتحمل الخريج مسؤولية إعادة تأهيل نفسه وترتيب معارفه وتوجيهها ، فإنه سيكون جزء من المشكلة لا من الحل ، على أن هذا التأهيل ليس بالأمر اليسير ولا بالقصير ، بل يتطلب جهودا ذاتية مضنية قد تستمر لسنوات ، فضلا عن كونه غير متاح لكل خريج ، والنتيجة أن على الكثير من المجتمعات تحمل تبعات نظم تكوين

قاصرة تهدر الطاقات وتستنزف الجهود ، وتبني الحواجز بين الأمم والشعوب ، وتسهم في تجدد الصراعات....وما لم ينتبه إليه المربون والموجهون منذ البداية هو أن لا أحد يستطيع تطوير واقعه بمجرد تجميع معارف ماضيه ، بل بتحمل مسؤولية التفكير لمستقبله ، وتحمل هذه المسؤولية هو غاية الدراسات المستقبلية .

- فكيف يمكن بناء حس مستقبلي عام يوجه الطاقات ويفيد المؤسسات والمجتمعات ؟
- وكيف يمكن أن يكون الماضي وسيلة لفهم المستقبل وحسن التصرف فيه ؟ وكيف يمكن أن يكون عائقا دون ذلك ؟
- وكيف يمكن بناء تصورات مستقبلية عملية تتيح توسيع الآفاق والتمكين من الاستفادة من الفرص وتجنب المخاطر أو تقليصها قبل وقوعها ؟

مفاتيح التفكير الاستراتيجي:

ست مداخل تبين مدى أهمية التفكير الاستراتيجي والدراسات المستقبلية نعتبرها مفاتيح ضرورية لمناهج وأدوات الاستشراف سواء بالنسبة للمقاولات كبيرها وصغيرها ، أو بالنسبة للإدارة والمؤسسات العامة .

هي *مداخل ست* ، أولها التسارع مقابل الرتابة ، ثم التجاوز مقابل الاكتفاء ، ثم التوقع مقابل التكرار ، فالخيال مقابل التسليم ، والاستعداد مقابل الانسحاب ، وفي الأخير مبدأ المبادرة مقابل الانتظار، أي في قليل من الاستشراف كثير من الفائدة .

المفتاح الأول : التسارع:

كان الإنسان في الماضي قادرا عموما على توقع تطورات واقعه ومسارب حياته بشكل عفوي تلقائي غالبا ، حيث كان التغير بطيئا ويستمر لأجيال متعاقبة ، وكان يكفي للمرء أن يتكيف مع محيطه المباشر من خلال ما يتلقاه من ثقافة مجتمعه لكي يتمكن من التأثير في مستقبله بعض التأثير، أما اليوم ، فقد أصبح التغير شاملا و سريعا ومؤثرا في كل مفاصل الحياة ، وليس الأمر هكذا فحسب ، بل إن هذا التغيير يزداد تسارعه باستمرار (كورنيش، 2007، صفحة 13) ، ويرى إدوارد كورنيش أن

الحدث الأهم الذي يجري حاليا في العالم دون أن يتم الإخبار عنه في أي من وسائل الإعلام ،هو الحدث المتعلق بعنصر التسارع في وتيرة تغير العالم حولنا تسارعا لم يسبق له مثيل في التاريخ البشري ، وهو ما يؤثر في كل أوجه الحياة الإنسانية في كافة المجالات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والنفسية ، بل إن كورنيش ليعتبره المتسبب في " التغيير الجذري الكبير " في حياة البشر على هذا الكوكب . (كورنيش، 2007، صفحة 15)

وفي هذا يرى الخبراء أن المعرفة الإنسانية أضحت تتضاعف كل عشر سنوات ، ومن المنتظر أن تتضاعف كل خمس سنوات ، ثم أقل بفعل التطور الهائل والمتسارع لوسائل إنتاج المعرفة وتطويرها ، وهذا يجعنا نقف كل حين على أبواب عهد جديد يتطلب دوام التكوين والتعلم لنتمكن بذلك من الاستعداد لما يمكن توقعه في المستقبل من أخطار للتخفيف منها ، ومن فرص لنحسن إمكانات الاستفادة منها .

المفتاح الثاني : التجاوز:

أصبحنا اليوم في عالم تفقد فيه المعرفة باستمرار حداثتها وراهنيتها ، فتجددها المستمر وتراكمها أفقيا وعموديا يجعل قسما كبيرا مما يتم تدريسه يتقادم بسرعة ، ويجعل الكثير من المتخصصين يعيشون نفسيا في الماضي (كورنيش، 2007، صفحة 83)، فأغلب معارفهم تغدو بسرعة جزء من تاريخ المعرفة لا من المعرفة ، إذ أن ما يعرفونه منها إنما قد يكون وضع المعرفة في فترة من فتراتها السابقة.

ولهذا لا يجدي أبدا الاكتفاء بما أخذناه في تعليمنا الرسمي ، ثم نعتبر أن ما تعلمناه يبقى صحيحا سليما ، بل علينا أن نخوض عملية تكوين لا ينقطع في المجالات التي تهمنا ، وفي المجالات المتعلقة بها ، فالمعارف لا تتطور بمعزل عن بعضها، ولا بمعزل عن محيطها ، بل بالتفاعل المستمر مع الذات والمحيط.

المفتاح الثالث : التوقع

في الماضي كان الأنبياء يخبرون ويبشرون وينذرون أقوامهم عبر وسائل غيبية لم تكن متاحة لأحد دونهم ، كانوا يخرجون إلى الناس بنبوءات مشروطة اعتبرت مصدر إرشاد وتوجيه ، أما اليوم وبعد انقضاء عصر الأنبياء وبداية عصور العلماء ، فإن

تجميع نتائج العلوم يتيح شيئا من التنبؤ بأحداث المستقبل وانعطافاته الكبرى ، فالعلم له خاصية تنبؤية بما يكشف عنه من قوانين ، ومن خصوصيات القوانين الثبات والاطراد ، وبذلك فالتوصل إلى معرفة مسارها يمكن من معرفة آثارها الواقعية على مستقبل الإنسان وتحولات محيطه ، وهذا يتيح إمكانيات واسعة لتوظيف القانون لتحقيق منافع مادية ومعنوية غير محدودة .

المفتاح الرابع : الخيال:

لاحظ العلماء أن العلم وإن كان يمدنا بمعطيات متطورة ومتجددة باستمرار ، إلا أنه في حاجة إلى الخيال لكي يستمر في نفع الناس وتنمية الواقع ، فالخيال هو الممكن من معرفة الهدف الذي نريد بعد المعرفة التي نحصل عليها ، ماذا نريد بناء على ما علمنا من قوانين الطبيعة والتاريخ والمجتمع ؟ ماذا نقرر وماذا نختار؟ وكيف نوظف إمكاناتنا ؟ وفي أي اتجاه ؟

على أن الخيال إن لم ينتج عملا نافعا كان مجرد أمان هاربة من الميدان ، غافلة عن مواجهة التحديات ، وكثيرا ما نرى خبراء الدراسات المستقبلية يجمعون ما بين التأكيد على أهمية الخيال في تطوير المعرفة ، والرقي بالحياة والإلحاح على ضرورة جعله وسيلة بناء لا أداة هروب.

المفتاح الخامس : الاستعداد:

ليس المستقبل قدرا مقدورا بغض النظر عما نقوم به اليوم ، فإذا كان الحاضر هو ثمرة الماضي ، فإن المستقبل هو أيضا ثمرة مواقفنا وطرق تفاعلنا مع هذا الحاضر ، وما نغرسه اليوم نجنيه غدا ، إن خيرا فخير ، ومعه أعراض جانبية ضارة ينبغي توقعها والاستعداد لها بطرح بدائل تزيل الأضرار أو تقلص منها ، وإن شرا فشر ، ومعه أعراض جانبية نافعة لا نغتر لها ولا يؤثر فينا بريقها ما دمنا قد أحسنا التوقع والاستعداد .

وعلى الرغم من أهمية الدراسات المستقبلية في توقع الفرص والأضرار ، والتمكين من استثمار هاته وتفادي تلك ، فإن العديد من المشتغلين بالعلم في مختلف تخصصاته

فضلا عن متخذي القرار على المستويات التربوية والإدارية والتشريعية ..لم تتح لهم إمكانات التعرف على مبادئها والتدرب على مناهجها لرفع مستوى الأداء في مؤسساتهم ، بل وجدنا منهم من يدعو أصلا إلى عدم الانشغال بقضايا المستقبل حتى نتم انشغالات الحاضر ، أو حتى يأتي هذا المستقبل وهناك نتصرف ، فالمستقبل غيب والاشتغال به إفساد للحاضر بهموم المستقبل ، وفي هذا ما لا يخفى من خلط بين الاهتمام بالمستقبل والاغتمام له ، فالأول إعداد وفاعلية والثاني انسحاب وسلبية .

ليست الدراسات المستقبلية إذن إلا استعدادا منهجيا للمستقبل يتضمن توسيع الآفاق بتجاوز المحاذير الثلاث : المنطق الآني ، والمنطق الخطي ، و النظرة التجزيئية للتاريخ وللواقع ، فما نتخذه اليوم من قرارات ، وما نقوم به من تصرفات ، سوف يؤثر على مستقبلنا ومستقبل الأجيال من بعدنا حتى في المجالات التي تبدو بعيدة كل البعد عن مجال قراراتنا وتصرفاتنا ، فكل شيء مرتبط بكل شيء (كورنيش، 2007، صفحة 105) .

المفتاح السادس : المبادرة – في قليل من الاستشراف كثير من الفائدة .

هناك حقيقة تفرض نفسها على كل عقل هي أن المستقبل غيب لا نستطيع معرفته ولا التحكم فيه ، وهذا صحيح في سياق خاطئ في آخر ، إذ أننا نعرف أشياء قليلة عن المستقبل تنبؤنا بها قوانين العلوم ، وهي ثابتة ومطردة ، نعرف مثلا أن الماء سوف يتمدد بالبرودة ويتبخر بالحرارة ، ونعرف أن الحديد سوف يتمدد بالحرارة ، وأن الأجسام سوف تسقط على الأرض بفعل الجاذبية..

يتيح العلم – ومعه العقل النظري – التنبؤ على وجه اليقين أن غدا هو اليوم الموالي من أيام الأسبوع ، وأن هذا اليوم يتطلب استعدادا لأشغال دون أخرى – خاصة بيوم آخر– ونحن نعرف أن للصيف مواعيد وللشتاء أخرى ، كما أننا نعلم على وجه اليقين – أو قريب من اليقين – أن إهمالا معينا في الرعاية الصحية سوف يتسبب في انتشار فيروسات معينة إلى أجسام سليمة وسوف يلحق مها من الأضرار ما يمكن معرفته مسبقا .

وإذا كان بإمكاننا معرفة عدد مواليد السنة الجارية في منطقة معينة ، فإن بإمكاننا أيضا أن نعرف على وجه اليقين كم عدد رجال التعليم والفصول الدراسية والإداريين والمساعدين الذين سنحتاجهم بعد أربع سنوات من الآن ، ثم بعد خمس سنوات ، فست ...إلخ وليس هذا فحسب ، بل سنكون ملزمين بتحضير منشئات الدراسات العليا الكافية لهم بعد عشرين سنة مع مؤسسات تكوين أساتذتهم ، ومؤسسات تتبع حاجيات مجتمعهم المتجددة بهدف التنسيق بين هذه الحاجيات ونظم التكوين التي سوف تعتمد.

ولا يخفى أن ما نعرفه عن المستقبل قليل جدا بالنظر إلى عالم الغيب الواسع ، لكن هذا القليل المتاح هو في غاية الأهمية لأنه يساعدنا على اتخاذ قراراتنا بشكل أفضل[1].

وإذا المعطيات القليلة المؤكدة المخبرة عن المستقبل تمكن من اتخاذ القرار وتحسينه فما الموقف من المعطيات غير المؤكدة ؟

يوصي خبراء الدراسات المستقبلية بضرورة التعجيل باستخدامها قبل فوات الأوان ، فإذا انتظرت إلى أن يظهر من المعطيات ما يصحح أو يفند معطياتك ، فسوف يكون الوقت قد فات ، والأوان قد انقضى ، فالفائدة الوحيدة التي تأخذها من سائق تاكسي يخبرك بأن الاستثمار في أسهم شركة معينة مربح هو أن الأوان قد فات (كورنيش، 2007، صفحة 32) وليس في هذا تنقيصا من أحد ، بل تنقيص من تصرف يؤجل الفعل ويفوت الفرصة إلى أن يشيع خبرها في الشارع .

مناهج الدراسات المستقبلية :

يتطلب العمل الاستشرافي جهدا منظما في أربع مجالات.

1. التاريخ: في فهم قوانين حركته وسيره مع الإدراك الجيد بأن لمشكلات اليوم جذورا في الماضي، ولمشكلات المستقبل جذورا فيه وفي الحاضر، فالمستقبل ليس مقطوع الصلة

[1] لن يفيدنا في شيء إنباء عراف بحادثة سير ستحدث في الطريق كذا على الساعة كذا ، وأن شخصا سيصاب وآخر سينجو ..وغير ذلك من التفاصيل ، بل أهم من ذلك كله إخبار السائق بأن مدة صلاحية عجلات سيارته قد انتهت ، وأن تحكمه فيها سوف ينخفض بنسبة 10٪ عن كل 500 كلم ، ففي هذا التوقع (الثاني) – على الرغم من قلة معطياته – فوائد كبرى على مستوى سلامة الطريق وأمن الركاب ، وأيضا على مستويات اجتماعية واقتصادية شتى .

عنهما، بل هو نتيجة لهما وحصيلة تراكمية لما يتتابع من أحداث .وقد استمدت الكثير من الدراسات المستقبلية أفكارها ومناهجها من تخصصات تاريخية وأبحاث فلسفية بالطريقة التي تجعل الدراسات المستقبلية من فروع مباحث التاريخ، وبهذا يمكن اعتبار كتاب أوزوالد شبنجلر "أفول الغرب" ونظريات ماركس في تفسير التاريخ أمثلة جيدة للدراسات المستقبلية (La Federation mondiale pour les etudes sur le futur، 1987)، على الرغم من إمكانية تصنيفها تحت أسماء فنون أخرى.

2. الواقع: في التعرف على إمكانيات الشعوب ومطامح أصحاب القرار واتجاها ت موازين القوى، مع الاعتماد على الأرقام والإحصائيات، وغيرهما من الدلالات الكمية، غير أنه من الواضح أن التحليل الكمي لا يتناسب دائما مع كل الدراسات الاستشرافية ، بل هناك من الموضوعات ما لا يفيد فيها إلا التحليل الكيفي كالأبحاث الهادفة للاستفادة من الوقائع التاريخية ، أو التي تدرس التأثيرات التفافية والحضارية واتجاهات الصراعات الاجتماعية وأنماط القيم...

لذلك ينبغي عدم الانجرار إلى إغراق الدراسات في الأرقام والدلالات الكمية والحرص على المحافظة على جوهر الاستشراف المتمثل فيما يسميه ميشيل كودي ب"إرشاد القرار الحالي بنور المستقبلات الممكنة" (Godet، 1989، p. 137).

3. الرغبة: أمام كل مجتمع صور متعددة للمستقبل ، واحتمالات متباينة لتشكيله ، وعلى الدارس أن يتعرف على رغبات المجتمع الخاضع للدرس ـــ ويعمل على كشف الاحتمالات المتوقعة وتحديد معالمها وتوضيح مساراتها.

ولا شك أن الانتماء الديني أو القومي للباحث وانتماؤه إلى دولة متقدمة أو نامية يؤثر تأثيرا قد يكون مشروعا ومقبولا ولا يمكن تجاهله في توجيه الدراسة التي تفتح أبواب خيارات متعددة (عواطف عبد الرحمن، 2009) ، فإذا لم تكن للباحث قيم وأنساق مرجعية واضحة، لن يستطيع أن يختار بين سيناريوهين.

4. الخيال: وهو أوسع المجالات إطلاقا، وفيه يتحرر الفكر من قيود الماضي والحاضر، وينطلق لبناء نماذج جديدة مبتكرة ، وكثيرا ما يكون الباحث فيه أقرب إلى الفنان المبدع منه إلى العالم المستوعب.

التاريخ، الواقع، الرغبة، الخيال، تلك هي العناصر الأربع التي لابد منها لإقامة نسق تحليلي مستقبلي عميق ومتكامل .

توجد مناهج وأساليب متعددة في دراسة المستقبل والسعي للتأثير فيه من ضمنها :

1. الألعاب والتداريب .
2. الحدس المباشر .
3. استقراء التاريخ .
4. الخيال العلمي .
5. دلفي .
6. المحاكاة .
7. السيناريوهات .
8. الاستقراء إلى الوراء .

وسوف تقتصر دراستنا هاته على الأساليب الأربع الأخيرة (دلفي ،المحاكاة، السيناريوهات الاستقراء إلى الوراء)

ومن حيث الوظيفة ، تنقسم الدراسات المستقبلية إلى دراسات استكشافية (Exploratory) ودراسات استهدافية (Targeting) ودراسات مركبة (Compound) ، الأولى تسعى لبناء تصورات احتمالية لما يمكن أن تتطور علي الأوضاع الحالية في آجال محددة ، والثانية تسعى لبناء مستقبلات مرغوبة مع شروط الوصول إليها ، والثالثة دراسات جامعة بين الممكن والمرغوب فيه .

ومن أهم المناهج المستعملة في الدراسات الاستكشافية نجد منهج " دلفي " ومنهج " السيناريوهات " ، ومن أهم المناهج الموظفة في الدراسات الاستهدافية منهج " المحاكاة " و"الاستقراء إلى الوراء" ، أما الدراسات المركبة ، فهي وإن كانت منفتحة

على جميع المناهج والأساليب ، فإن التركيز كثيرا ما يقع بالخصوص على منهجي " دلفي " و"السيناريوهات " ، وقد نشأ كل منهج ضمن حاجيات اقتصادية وسياسية واجتماعية متعددة ، وقد اكتفينا هنا بعرض ما نراه الأكثر إفادة وتأثيرا .

1 .منهج دلفي :

كان التماس آراء الحكماء وأولي الخبرة هو الأسلوب الأكثر انتشارا عبر التاريخ ، وهو الأسلوب الذي طورته شركة راند الأمريكية وأطلقت عليه " منهج دلفي " ، وقد تولى عالمان يعملان بهذه الشركة هما أولاف هلمر ونورمان دالكي olaf helmer et Norman dalkey سنة 1953 تطوير عملية استفتاء تحت اسم منهجية دلفي " delphi " .

يقوم هذا المنهج على تكوين فريق عمل مكون من مجموعة من الخبراء والعلماء ذوي اختصاصات متنوعة من مختلف مناطق العالم يشتغلون وفق الخطوات الآتية :

1. تطرح على أعضاء الفريق مجموعة من الأسئلة المحددة بدقة وذات طبيعة استراتيجية .
2. يجيب المستفتون في أوراق تتضمن آراءهم وتحليلاتهم واقتراحاتهم العملية يرسلونها إلى المنظمين .
3. يتلقى المنظمون الأجوبة فيصنفونها ويعرضونها في سلسلة من الدورات على أعضاء الفريق من دون نسبة أي جواب لصاحبه (لئلا تؤثر الأجوبة في بعضها سلبا وإيجابا)
4. يعيد المنظمون بناء الحصيلة بطريقة تحدد اتجاهات المستقبل الممكن إن كانت الدراسة استكشافية ، والمستقبل المرغوب ، إن كانت الدراسة استهدافية ، وهما معا إن كانت مركبة .

اعتبرت منهجية دلفي منهجية مفيدة في الحصول على الآراء الناضجة ، والتحليلات المستقلة ، والاقتراحات العملية ، لأنها تتيح للخبراء حرية للتعبير أفضل مما لو كانوا مجتمعين ببعضهم ، ففي الاجتماع تفاعل قد يحجب التميز ويمنع انبثاق الجديد ، وقد يجعل البعض يهيمن على عملية الحوار، كما أنه من الممكن أن تكون بعض الآراء والاقتراحات من القوة والوضوح بحيث تحجب الآراء الأخرى وتمنعها من البروز ،

وفي كثير من الأحيان قد تكون عبارة بليغة أنيقة أكثر إقناعا من تقييم سليم يرتكز على تجربة طويلة ورأي سديد .

1. منهج المحاكاة:

منذ آماد بعيدة كانت الحرب حدثا متوقعا يتم الاستعداد له بالتداريب القاسية واستطلاع أخبار العدو ونواياه ودراسة احتمالات تصرفه خلال المعارك وقبلها وبعدها ، وكانت الجيوش – عموما – متفرغة لهذا ، مستمرة في إجراء التداريب مع الاستطلاع والتوقع ، وكانت التداريب – ولا زالت – تعتمد على لعب أدوار العدو والصديق والحليف وغيرهم ، وقد تم تطوير هذا الأسلوب سنة 1953 ، ومن هنا ، فقد استلهمت شركة راند من الحروب استراتيجياتها وعملت على تطويرها وتعديلها لتطبق في مختلف مجالات الحياة الاقتصادية والسياسية ، و أصبح اليوم منهج المحاكاة من المناهج المعتمدة في استشراف المستقبل على المستوى العالمي .

ينطلق هذا المنهج من افتراض وقوع حدث معين ، هجوم عدو ، حدوث زلزال ، وقوع ثورة ، نشوء أزمة مالية ...إلخ ، وبناء على هذا الافتراض يتم التدرب على ردود أفعال مدروسة بدقة ، حيث ترصد الميزانيات وتتخذ القرارات وتوزع المهام ، وعند انتهاء التدريب " المناورة " تدون الإجراءات اللازم اتخاذها قبل حدوث المحظور ، حتى إذا حدث ، كان الناس على استعداد له فقلصوا الخسائر واجتازوا الأزمة بسلام. ولهذا الأسلوب من الأهمية وقوة التأثير ما جعل كورنيش يتساءل عما سيكون عليه مستقبل العلاقات الهندية الباكستانية لو لعب المسؤولون من الجانبين مع بعضهم وافترضوا مثلا أن قنبلة نووية بدائية تقذف على نيودلهي ، وتصوروا النتيجة كيف ستكون ؟ ستكون كارثية بلا شك ، إذ ستؤدي إلى مقتل نصف سكان دائرة كلمتر حول نقطة التفجير ، وسوف تمتد الإشعاعات بعد ذلك إلى مئات الكلمترات (كورنيش، 2007، صفحة 67) مما ستكون له آثار كارثية على البلدين معا وعلى محيطهما الجغرافي .

ولا يستخدم هذا المنهج فقط للاستعداد للطوارئ وتفادي الأزمات ، بل أيضا لرصد الفرص قصد الرفع من إمكانات استثمارها وحسن توظيفها وهو يستخدم حاليا في تدبير أعمال الشركات الكبرى وإدارة المدن وتصريف فائض الميزانية وتوسيع الطرقات ، وبناء المطارات ، وتدوير النفايات ، ويستعمل أيضا في المجال القانوني لبحث إمكانات الخصوم ، وفي المجال التربوي للمساعدة على حل الإشكالات المطروحة ...إلخ

3- منهج السيناريوهات:

ظهر مصطلح «سيناريو» في عالم السينما والتلفزيون ليشير إلى تسلسل الأحداث وتطور الحبكة الدرامية ، وهو اليوم يشير إلى أهم أداة من أدوات الإدارة الإستراتيجية وتدبير المقاولات واستشراف المستقبل .

يعتبر منهج السيناريوهات أداة عالية الكفاءة لدفع المؤسسات نحو النجاح والتميز على المدى المتوسط والبعيد ، وهو يستعمل اليوم لدى العديد من الحكومات ومجموعات الأعمال بهدف الوقوف على البدائل المتاحة وتحديد طرق التعامل معها ، هدفه التمكين من دراسة التطورات المحتملة والتطورات المرغوبة للظاهرة المدروسة (أحدهما أو كلاهما) بهدف توجيه الخيارات الحالية إلى ما هو مرغوب وتفادي ما ليس كذلك ، إذ لا يمكن معرفة ما هو القرار الواجب اتخاذه اليوم حتى نعرف آثاره الداخلية والخارجية على المدى المتوسط والبعيد ، ومن أجل ذلك توجب بناء سيناريوهات متعددة تبين آثار قراراتنا الحالية على ما سوف تأتي به الأيام .

خطوات بناء السيناريو :

1. تحديد مجال الدراسة ووصفه وصفا دقيقا انطلاقا من بيانات كمية وكيفية وتاريخية .
2. تصور احتمالات " سيناريوهات " متعددة لتطور الموضوع المدروس ضمن آجال محددة بدقة.
3. تصنيف السيناريوهات باعتبار إمكان الحدوث ، ويعطى كل سيناريو علامة من + 10 إلى – 10 .

يضاف إلى ذلك إن كانت الدراسة مركبة (استكشافية / استهدافية) :

1. وصف الإجراءات اللازم اتخاذها على المستويات الفنية والإعلامية لتفادي سيناريو والوصول إلى آخر .
2. البحث في التكلفة اللازم دفعها من أجل تغليب سيناريو وتفادي آخر .
3. تعبئة الأفراد المعنيين والمؤسسات المعنية في اتجاه اتخاذ الإجراءات الفردية والجماعية للسيناريو المطلوب .

يعتمد المهدي المنجرة على سيناريوهات ثلاث :

1. سيناريو الاستمرارية .
2. سيناريو الإصلاح .
3. سيناريو التغيير .

أما إدوارد كورنيش فيعتمد – في أغلب أعماله – على خمس سيناريوهات :

1. سيناريو خال من المفاجئات ستستمر الأمور على ما هي عليه ولن تكون أفضل ولا أسوأ
2. سيناريو تفاؤلي : تتحسن الأشياء عما كانت عليه في الماضي
3. سيناريو التغيير :شيء ما مدهش ورائع بشكل خاص لم نكن نحلم به سيحصل
4. سيناريو تشاؤمي : تسوء بعض الأمور عما كانت عليه في الماضي
5. سيناريو الكارثة : الأشياء ستسوء بشكل مرعب وسيكون وضعنا أسوأ بكثير جدا مما

قد نكون عانيناه في الماضي

منهج الاستقراء إلى الوراء:

إذا كان منهج السيناريوهات يفترض البدء من سفح الجبل للوصول إلى القمة ، فإن منهج الاستقراء يبدأ من القمة ثم يتراجع إلى الأسفل حتى الوصول إلى نقطة البداية في الزمن الراهن .

يبدأ هذا المنهج بتحديد هدف معين يراد الوصول إليه في تاريخ محدد ، وعلى خلاف منهج السيناريوهات ،لا يتم البدء هنا من الحاضر ولا من دراسته ولا تشخيص

مشاكله ، بل من وضع معين مرغوب ومطلوب في تاريخ معين في المستقبل ، فنطرح الإمكانات ونحن نرجع إلى الوراء ، حتى نصل إلى وضعنا الحالي ، متصورين تسلسل الخطوات و المراحل موضحين كيف يمكن أن تحصل هذه الخطوات في المستقبل المتخيل لنقرر كيف نصل إليها، وما هي القرارات التي ينبغي أن تتخذ بعد خمس سنوات من الآن ، ثم القرارات التي ينبغي أن تتخذ بعد أربع سنوات ، ثم ثلاث ....حتى نصل إلى القرارات التي ينبغي اتخاذها اليوم لنصل إلى الهدف المرجو في التاريخ الذي تم تحديده ، وعادة ما يتم إيراد قرار الرئيس كندي بإرسال رجل إلى سطح القمر نموذجا لمنهج الاستقراء إلى الوراء ، ففي ماي 1961 ، وفي ظروف الحرب الباردة مع الاتحاد السوفياتي ، وفي خضم الغزو الفاشل لخليج الخنازير في كوبا ،وبعد نجاح الاتحاد السوفياتي في إرسال يوري غاغارين إلى الفضاء – ألقى الرئيس الأمريكي جون كينيدي (1917 – 1963) خطابا أعلن فيه عن هدف وطني كبير هو إنزال أول رجل على سطح القمر وإعادته سالما إلى الأرض ، أعلن الرئيس عن الهدف ، لكنه لم يبين كيف ، وقد كان التطور الكبير الحاصل في تكنلوجيا الصواريخ آنئذ محفزا للعلماء الذين رأوا أن الهدف ممكن التحقق وإن كان صعبا ومكلفا ، وهذا أطلق سلسة من الإجراءات توجت بوصول الإنسان إلى سطح القمر .

وقد يطلب مدير تنفيذي من فريق عمله الوصول بعد خمس سنوات إلى مضاعفة مداخيل شركته ، هنا بإمكان فريق العمل تصور مخطط ينطلق من الهدف إلى ما قبله شهرا شهرا وسنة سنة ، حتى الوصول إلى نقطة البداية حيث يتوجب القيام بالإجراءات المناسبة التي يتطلبها الموقف ، ولولا الرؤية بعيدة المدى التي تم الانطلاق منها لما تمكنوا من تحديد ما يناسب من الإجراءات عند الانطلاق .

خاتمة:

ليس الاستشراف إذن مجرد ترف فكري أو تكهن سلبي بما سوف يكشف عنه المستقبل من أحداث ، بل هو سعي علمي لاستباق الأحداث قبل وقوعها وضبط وتسطير ما نرجوه وما يمكن وما نتوقع .

وبذلك فقد أضحى الاستشراف المنهجي اليوم :

- أداة ضرورية للرفع من جودة القرارات التي تتخذ على سائر المستويات الخاصة والعامة.
- وسيلة استعداد لمواجهة الطوارئ والمخاطر التي يمكن أن تعترض مخططاتنا في أي لحظة.

فإذا أردنا أن يكون مستقبلنا مشرقا ، أو على الأقل مقبولا ، فعلينا أن نتصرف اليوم ونتخذ قراراتنا آخذين في الاعتبار العناصر الخمس الآتية :

1. الفرص المتاحة بقصد اغتنامها .
2. المخاطر المتوقعة بقصد اجتنابها أو التقليص من آثارها.
3. نتائج قراراتنا على المدى البعيد ، وليس فقط على المدى القصير أو المتوسط.
4. نتائج قراراتنا على سائر القطاعات ، وليس فقط على القطاع الخاص بمجال القرارات.
5. تحفيز الأفراد وتوجيه المجموعات نحو رؤية مشتركة تنسجم فيها الجهود مع بعضها

وتتكامل وتتناغم بقصد خدمة مؤسسة أو مجموعة أو مجتمع .

قائمة المراجع:

Godet, M. (1989, novembre). Prospective , Pourquoi ? Comment ? sept idées-cléfs . (futuribles, Éd.) *futuribles* (137), p. 5.

La Federation mondiale pour les etudes sur le futur, p. l. (1987). *Reconquerir le futur Manuel d'etudesrospectives à l'usage des planificateurs africains* . bruxelles : La longue vue .

إدوارد كورنيش. (2007). *الإستشراف ، مناهج استشراف المستقبل* (الإصدار الطبعى الأولى). بيروت: الدار العربية للعلوم.

الحسين بن محمد الحنائي أبو القاسم. (2007). *فوائد أبي القاسم الحنائي ت 405* (الإصدار الطبعة الاولى ، المجلد 4). بيروت: أضواء السلف.

صلاح الدين بن عبد الله الدمشقي العلائي. (2003). *المسلسلات المختصرة المقدمة أمام المجالس المبتكرة ، دراسة وتحقيق أحمد أيوب ، محمد الفياض*. بيروت ، لبنان: دار الكتب العلمية.

عواطف عبد الرحمن. (2009). الدراسات المستقبلية ، الإشكاليات والآفاق. *عالم الفكر، 18*(04).